معركة الاصلاح

الاجتماعي

قادتها ، خططها ، أسلحتها ، جنودها ، ميادينها (١)

لمحمد العشماوي بك

سيداتي ، سادتي ، بناتي ، أبنائي ،

إنهُ لمن حسن حظي أن تتاح لي الفرصة لأتكلم كي أحقق غرضين :

الاول — ان أنفس عن نفسي ، فان مشكلة الاصلاح الاجتماعي ، وقصور العناية به وضعف الثورة من أجله لما يرد النفس عن هدوئها ويجعلني عدتا ثوريا بدل أن أكون محاضراً . والغرض الثاني — أن أؤدي ديناً عليّ لمدرسة الخدمة الاجتماعية ، فقد كنت أول المتكلمين في حفل افتتاحها ، بيد أني تكلمت وكيلاً لوزارة المعارف مكلفا من قبل وزيرها بصفة رسمية ، ثم توثقت بيني وبين المدرسة صلات المودة والتعاون بعد خروجي من الوزارة ، على غير العادة المألوفة التي تقضي بتراخي العلاقات بعد ترك المنصب ، فأبى وفاء هذه المدرسة إلا أن يقلب الأوضاع فتتوشج بيني وبينها الصلات حيث تنتفي المصلحة لا حيث تدعو ، فتلقاء هذا الخلق الكريم أؤدي واجب التحية لهذه المدرسة في مستهل عامها الخامس ، راجياً لها مطرد التوفيق

وقبل أن أحدثكم في شأن معركة الاصلاح الاجتماعي أريد أن أدفع وهمين : الاول ما أفاضه عليّ وكيل وزارة الشئون الاجتماعية الاستاذ حسونة بك من ثناء ، فانهُ مؤدٍّ بي الى حرج حينما يقاس إليه ما أنا متحدث به وستجدون هوة بين قولي وثنائه إذ تسمعون حديثي فلا يروعكم بشيء مما أفاضه عليّ ، فلتردوا ثناءه الى نبالة شخصه وكرم صداقته، ورأي الصديق مفروض فيه المبالغة . وإنهُ لمن مصلحتي أن أتجرد مما خلع إياه من الفضل شاكراً له سخاءه ، وأن أطالعكم بحقيقتي في ثنايا قولي . فأما الوهم الآخر الذي أريد دفعه فهو أني ألقي محاضرة . والحق أني لم ألق محاضرة ، في حياتي قط إلا في القانون أعني سادتي وسيداتي علي . ولست في مضمار الاصلاح إلا هاوياً من الهواة . ولا يجوز

(١) الكلمة التي افتتح بها عامه العام الخامس لمدرسة الخدمة الاجتماعية يوم ٤ أكتوبر ١٩٤١

أن يسمى الهاوي محاضراً . ولعلّ من الواجب أن تحتج مدرسة الخدمة على أن أحشر في زمرة أساتذتها المحاضرين المتخصصين ، على حين أني إنما أطالعكم في حديثي بفورة من فورات النفس أتيحت لها الفرصة أن تندلع

***

وربما كان مما أغراني بقبول التحدث اليكم في معركة الاصلاح الاجتماعي أني أقوم على رأس جماعة تعني بالاصلاح وتعمل له، فبينها وبينكم أمتن الروابط وآكد العلاقات القائمة على تداول الرأي وتبادل المعونة . ومن حقي إذن أن آتي اليكم حاملاً علم الجماعة التي أرأسها، فانها بما أنشأته من مؤسسات الطفولة وبما ترعاه من الشؤون الاجتماعية تشاركم الى غاياتكم النبيلة في الاصلاح ، وتنهض بقسط من مهماتكم في الخدمة العامة . فأنا في مقامي هذا أؤدي لكم واجب الشكر وواجب المعونة معاً . وبذلك أكون دائناً ومديناً في وقت واحد فتقع المقاصة وأخرج بريء الذمة لا لي ولا عليّ

ولكم أن تسألوني وقد اخترت كلمة « معركة الاصلاح الاجتماعي » عنواناً لحديثي : لماذا آثرت هذا الوصف ؟ والحق أني متأثر بعاملين : الاول أننا في عهد حرب تنادينا أنباؤها المكررة في الصباح وتغير علينا نوائبها الجائحة في المساء . فقد مني بها العالم أجمع لا فرق بين محارب ومحايد . ولا منجاة منها في بر أو بحر أو سماء . وقد سخرت لها كل ما في الدول من قوى وزجت فيها كل وسائل الدفاع والهجوم ، وجندت لها العلوم والعقول والجسوم . فلا غرو إن تأثرنا في جو الحرب بلغة الحرب . ولا بدع إذا استعملنا ألفاظ القتال الدائرة في أفواهنا لنصل بأحاديثنا الى القلوب . والعامل الثاني أن معركة الاصلاح معركة حقة فليست هي وحي خيال أو وهم شاعر ، وإذا قام الخلاف على معركة الحرب ، أهي بين الخير والخير، أم هي بين الشر والشر، أم هي بين الخير والشر . فانه لاخلاف على ان معركة الاصلاح قائمة بين الخير والشر لا غير . ومن ثمّ فهي مقطوع بمشروعيتها يجب أن نؤازرها وأن نعمل في ميادينها حتى نكفل لها الفوز والنصر

ولو تقصينا الموازنة بين معركة الحرب ومعركة الاصلاح الاجتماعي لوضحت لنا وجوه الشبه بينهما . فكلتاهما لها خططها وأهدافها ، ولها قادتها وجندها ، ولها ميادينها ومناطقها . فان معركة الاصلاح الاجتماعي تعتمد على أسلحة متنوعة كالشأن في معركة الحرب، وهي أسلحة تتفاوت بتفاوت المستوى الاجتماعي لكل أمة، ولكنها تلتقي في وجوب اجتماع قوى الامة كما تجتمع في الحرب قوى الدولة . وهي كذلك معركة يجب أن يكون لها طلائع من الكلام

والدعاية كما في الحرب . فواجب أن يمهد المصلح لها . وأن يعمل على تغيير الشعب لتجديد الاصلاح . وهي معركة تبتدئ بالقول وتنتهي بالسلاح ، وما أشبهها بالاسلام إذ بدأ بالدعوة وانتهى بإعمال السيف ، وقد أجاد شوقي بك تصوير ذلك في قوله :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا ... لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة ... فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفواً كل ذي حسب ... تكفل السيف بالجهال والعمم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به ... ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم

***

على أن معركة الاصلاح الاجتماعي تختلف عن معركة الحرب بأنها كما أسلفت معركة مشروعة وبأنها لا هدنة فيها ولا صلح . فإن أمّل العالم وضع الحرب أوزارها على أي وجه فإنه يجب أن نقطع الأمل من انتهاء معركة الاصلاح ما دام الشر قائماً ، وسيقوم حتى تقوم الساعة

ومن عناصر الخلاف بين المعركتين أن معركة الاصلاح للتعمير لا كمعركة الحرب للتدمير ، نصيب المهزوم فيها الخراب ، وحظ المنتصر فيها الخسران لا محالة . فما يراد بمعركة الاصلاح إلا تعمير البلاد أخلاقاً وعقولاً وحياة ، وإلا استقامة الامر للحاكمين والمحكومين على السواء

ولما كانت معركة الاصلاح للتعمير فقد كانت أسلحتها للتعمير أيضاً لا كالأسلحة الحربية المدمرة ، وإذن فتلك خير المعارك التي يشتغل بها الناس اذا أرادوا كسب المعركة الكبرى . وليت شعري كيف تستقبل معركة الحرب أمة نهك الفقر فؤادها وتعطلت من الأخلاق نفوسها . فحتم أن تكون معركة الاصلاح سابقة لمعركة الحرب حتى تكفل أسباب الانتصار

وعلينا إذن أن نخرج على العرف فنسمي معركة الاصلاح المعركة الكبرى ونعتبر ما عداها صغرى المعارك . وإني ليحضرني في تأييد ذلك حديث للرسول صلوات الله عليه في عودته من إحدى مغازيه إذ قال : « رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر » . يريد مجاهدة النفس ومغالبة الأهواء . فالاصلاح الاجتماعي هو الجهاد الأكبر بلا مراء

ولقد وضح لكم أن لمعركة الاصلاح أوضاع المعركة الحربية . ومن هذه الأوضاع إعداد القادة . ففي معركة الحرب يعدون بالدراسة والمرانة معاً . وقد يبرز بعض القادة كبعض المصلحين بحفزهم همة وثابة ، ونفس قوية ، دون إعداد سابق أو تمرين . بيد أن المعارك الحربية الحديثة لم يعد يصلح لها هذا الضرب من القوّاد . فلا بد للقيادة من دراسة لفنون

الحرب . واتساع علمٍ بطبائع الأرض وطبقات الجو واعماق البحر، الى تنبؤ بتقلبات الشعوب ومعرفة عن أرزاقها وموارده . وكذلك الأمر في معركة الاصلاح ، فهي انما تحتاج الى قادة متخصصين . فلم يعد يكفي في ذلك أن تبرز لمصلح فكرة فيستخدم بلاغته للتأثير في محيطه فان ذلك منته حتماً الى الاخفاق . وكيف تتمخض قائداً لا يفقه شيئاً من شؤون البلاد ولا من نفسيات أهليها ولا من وضعها الاقتصادي ولا من العوامل التي تؤثر في الدعوة رفضاً أو قبولاً . ولهذا وجب أن يسبق القيادة في ميادين الاصلاح إحاطة بمشكلات المجتمع وبواعث الانحلال فيه ووسائل النهوض به

ومن الطبيعي وأنا في صدد تكوين القيادة أن تعرض لي على الفور مهمة وزارة الشؤون الاجتماعية، فقد ألقيت اليها مقاليد القيادة، ثم جندت البلاد كلها تحت لوائها . ومن العبث أن نكل الى هذه الوزارة مواجهة المشكلات على وجه التفصيل . فذلك عنت لا تستقل به هيئة . فالوزارة كما أتصورها في مركز القيادة حولها هالة من رجالات الفكر وذوي الرأي يدرسون وسائل الاصلاح في الأمم الناهضة، ويراعون الفوارق بين البيئات المتباينة. فان نوعاً من الاصلاح في بيئة قد لا ينتج في بيئة أخرى . وحين تتهيأ للوزارة هذه الكفايات يتسنى لها أن ترسم الخطط وتضع البرامج مستنفدة ما يتطلبه العمل من وقت متسع وجهد متصل ومال موفور. فعلى هذا الأساس تصورت وزارة الشؤون الاجتماعية وعلى هذا الأساس تمثلت عملها، وعلى غير هذا الأساس لا يمكن أن يكون للوزارة أثر محمود . ولا يفوتني في هذه المناسبة أن أندد بالآراء المرتجلة في الاصلاح تلك التي لا برنامج لها ولا خطة يقوم عليها أمرها . فهي قد تلفت الانظار وتستهوي الافئدة . ثم لا يلبث أمرها أن يتزلزل ، شأن كل عمل لم يعين هدفه ولم تراع ملابساته ولم تستكمل دراسته ، فمن رأيي الذي أجهر به أنه يجب أن تتوافر أولاً كل الوسائل التي تمكن وزارة الشؤون الاجتماعية من رسم خططها . لا يضن عليها في سبيل ذلك بمال ولا بعقول تجارب ولا بأية وسيلة تعين على الدرس واستقرار الرأي والاطمئنان الى بلوغ الغاية وإصابة الهدف .

وللتمكين من ذلك كله يجب أن يكون للوزارة سلطان يستوعب سائر الوزارات والمصالح، لا تقف في طريقه عقبات تنازع الاختصاص، فانه لا فائدة من تنفيذ البرنامج الاصلاحي المستقر غير المرتجل إلا بتوحيد القيادة وتقويتها وإعطائها حق الفرض والتنفيذ، وإلا بانطواء جهود الحكومة والشعب تحت راية واحدة، يبذل كل من خفقت عليهم ما حباه الله من رأي أو مال

فأما خطط المعركة فقد ألمعت اليكم أن الاصلاح لا خطة له في مصر . وإنما هي مرتجلات

من الآراء والأفكار تواجه بها كل مشكلة حين يشتد تعقدها. وما أحوجنا الى تجنب الارتجال في حل ما بين أيدينا من مشكلات تداعي الاسر ، والتشريع الناقص ، واضطراب القوت ، وبلبلة التعليم . فان تفكيرنا في ذلك وأمثاله مرتجل لا ينهض على أسس من الدراسة المنظمة والنفوذ الى الجوهر

***

لقد آن لنا أن نعدل عن هذه الحال وأن نستعرض حياتنا في شتى مرافقها . فنرسم لجوانبها المختلفة خطة منسقة تستوعبها وتعالج أدواءها. وكفى اننا سرنا طوال هذا الزمن على غير هدى. وهذا هو ريفنا أمامنا مقياساً لما تورطنا فيه من اهمال وفوضى . ولأذكر لكم حديث رجل من كبراء الاجانب قال لي يوماً « رأيت الريف اول ما رأيت وشهدت حاله فلم أشك في أن عاصمة هذه القرى قرية على مثالها تمتاز ببعض السعة في الرقعة . ثم دخلت القاهرة فلم ألبث أن تصورتها رأساً كبيراً ركب في جسم ضئيل . ولا يستقيم لمخلوق كهذا عيش ولا حياة » وان هذا الحديث لحق كل الحق ، وحسبكم مصداقاً لذلك أن القاهرة وحدها تضم نصف معاهد التعليم في أنحاء الوادي كله . فنحن لا ننظر الى مصر كلها باعتبارها رقعة واحدة . وإنما نعني بكبريات المدن ونركز فيها أسباب العمران . وبذلك كانت الهوة عميقة بين الحواضر والقرى . فاختل توازن الحياة الاجتماعية لابناء البلاد . فلزام علينا أن نراعي المساواة في غير تطرف ، وأن نقرب الهوة بين الطبقات حتى لا تسير الأمة بشق مشلول ؛ وتلك هي مهمة الاصلاح الاجتماعي وذلك واجب القيادة العامة . فعلينا أن نراجع الحياة الاجتماعية للشعب مبتدئة بالطفل الى الشيخ ، مستوعبة لمناحي الثقافة والاقتصاد والاجتماع

***

ولننتقل الآن الى الجنود ، ومن هم ؟ هم أبناء البلد جميعاً ، فيجب أن يجند كل قادر على العمل في أي ميدان ، ويجب ألا يترك ذلك لمحض الرغبة بل يكون التجنيد إجبارياً ، كل بما يتسع له ذرعه ويتفسح له إمكانه . وقد أرشدنا الى ذلك رسول الله صلوات الله عليه حين قال : كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته . وقد بلغ في حديثه الشريف الى الخادم فسماه راعياً وعده مسؤولاً عمن يرعاه . فعلينا إذن ان نعتبر الاصلاح فرض عين لا فرض كفاية . ذو المال يقدم مما ملكت يمينه ، وأخو العلم يبذل من علمه ، وصاحب التجربة يفيدنا مما أضاءت عليه تجاربه ، وذو الجاه يزكي عن جاهه فان للجاه زكاة كالمال يجب أن تؤدى . وعلى الجملة لا بد أن يكون كل فرد خادماً اجتماعياً في المحيط الذي يعيش فيه وفي الميدان الذي يصلح له وبذلك يتعاون

الأفراد في شتى البيئات فتكون الأسر والمصالح والمعاهد مثابات للاصلاح ، وتصبح الأمة كالبنيان يشد بعضه بعضاً

وإننا إن بلغنا من ذلك مأربنا واجهنا معركة الإصلاح ضامنين الفوز والنجح . ولكن ما هي عدة الجنود ؟ الايمان اولاً والعلم ثانياً . يجب ان يؤمن الجند بالفكرة . وبواجب العمل بها . فاذا قوي الايمان لم يبق في سبيل الاصلاح عائق . ولقد سمعت مرة قائلاً يلتمس العذر للراغبين في الاصلاح بأنه لا مال لهم يكفل النهوض بالغرض المرجو ، فحضرتني حينئذٍ دعوة الاسلام ، وهل كان سلاحها الا الايمان والاعتقاد وما تبعه من احتمال للأذى ومواصلة للسعي ؟ وعياً لو وضعوا العقيدة في كفة وأسلحة الدنيا في كفة لرجحت الأولى وإن طال بها المدى

ولن ننسى أسلحة أخرى لها خطرها في سير المعركة ، فهناك الصحافة بقوتها وجبروتها ، لو عملت على التبشير بفكرة الاصلاح الاجتماعي في أساليبها الصحفية المؤثرة ومنطقها المعتمد على استخدام الحوادث الجارية ، لبعثت من المراقد اولئك الذين استكانوا ورضوا بالنقص الاجتماعي الراهن . وهناك توأم الصحافة أعني الاذاعة ، وعلى عاتقها يجب أن يقوم قسط كبير من الدعوة والتوجيه والارشاد . واذا شئنا ان نضمن لأنفسنا الفوز في تلك المعركة فلا نصير لنا كالدين فهو أكبر سلاح للإصلاح ، والدين العاملة ، والتربية الدينية الصحيحة أوفى دواعي النهوض الاجتماعي والعمل له . فعلينا ان نعتمد على مبادئها الصافية تبعث في نفوسنا أعمق الايمان بالاصلاح والتجرد لخدمته في أشق الميادين جهاداً وأدعاها الى التضحية بكرائم الاموال وعظائم الجهود

***

وهيهات أن يفوتنا الالتفات الى المرأة ، ومن الخير ان نكاشف أنفسنا بأنها في أغلبيتها العامة عامل من عوامل الضعف الذي نعانيه ، فما ننكره من تداعي الأسر والأمة من ورائها انما يرجع الى أن المرأة لم تهيأ لتأدية رسالتها في الحياة على وجهها الصحيح . ورحم الله شاعرنا شوقياً إذ يقول :

وإذا النساء نشأنَ في أُمّيةٍ رضع الرجال جهالةً وخمولا

فاذا لم نعن بتهيئة المرأة واذا لم نراع الرشد في التهيئة المنشودة فلا سبيل الى اصلاح . ومن الرشد ان نصرفها عن أن تزاحم الرجل في ميدان هي فيه أقل جدوى ، وإنما تدفعها اليه فكرة المساواة على اطلاقها ، متغابية عن واجب توزيع العمل . فلقد كدنا نواجه ازمة هي ترك المرأة ميدان المرأة — ذلك هو تربية الجيل — واستباقها ميدانَ الرجل الذي أسميه «ميدان

أكل الخبز » ولو معنت المرأة في هذا الاعتراف لتقدم هذا الجندي في ميدانه الذي أعدته له طبيعة الحياة

***

أما الشباب فهو خيرة الجند الذين يجندون في معركة الاصلاح . ولقد طالما تناقل بعض الناس قالة اليأس من الشباب وإسقاطه من الحساب إذا أريد الاصلاح الحق . واجتزئ في رد ذلك بالإشارة إلى ما كان من شأن عرب الجاهلية في مفتتح الدعوة الاسلامية فلقد كان تدبير صاحب الدعوة أنه قلب الشر في أنفسهم خيراً ، والبغي عدلا ، والتعصب والعدوان فتحاً ونشراً لكلمة الله . واذا أسقطت شباب اليوم فمن يقوم على بناء المستقبل . ومن ينشئ أبناء الغد ? ألا إني أسقط الأجيال القادمة جميعاً اذا أسقطت من الحساب شباب الحاضر وانما السبيل ان تتولى القيادة توجيه الشباب توجيهاً صالحاً ، واستغلال وقت فراغه استغلالاً يعود على الوطن بأطيب الثمرات

***

والآن نسأل أنفسنا ما هي ميادين الاصلاح التي تجري فيها المعركة المنشودة ? أمامنا ميدان الطفولة . وانه ليقتضينا جهوداً متواصلة فالطفولة مهملة في بيئة الغني وبيئة الفقير على حد سواء . فالفقير عاجز عن النهوض بتبعات التنشئة والتربية . والغني سادر في طره تارك طفله لخادمه ينشئه على غراره . فعلينا أن نلج هذا الميدان في بيوت الأغنياء والفقراء حتى نخلق جيلاً جديداً يسلم من النقص الاجتماعي الذي يشكوه المصلحون

***

ووراءنا ميدان الريف ، آمال مصر في الحياة . فنحن نسمع به ولا نرى شأنه أو نرى ثم نتعامى عن حقائقه المرة . وأين نصيبه من وسائل الاصلاح ? ولعلكم تذكرون ما قام من العراقيل حين نودي بمشروع المراكز الاجتماعية وما قيل في صدد ذلك من أن عمل وزارة المعارف ووزارة الصحة فيه العوض من عمل هذه المراكز . وبذلك خلطوا بين مهمة الثقافة العامة والصحة العامة وهذه المهمة الخاصة بحياة الفلاح التي يراد من أجلها انشاء المركز الاجتماعي في القرية

والحق أن مرافق الحكومة صحية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية هي بمثابة الهواء في الاجواء . وليس يكفي أن يتماوج الهواء في الخلاء ليتنفس فيه أولئك الذين أغلقت عليهم أبوابهم وسدت دونهم منافذهم فليست تجد النسمة اليهم مخلصاً وليسوا واجدين اليها سبيلاً . وما المراكز الاجتماعية التي هي موضع التساؤل بين المصالح والوزارات عن فائدتها الا بمثابة

الباب ينفذ منه الهواء أو النافذة يرق منها الضوء الى حياة الفلاح القاتمة . وإذ تتضح مهمة المراكز الاجتماعية على هذا الوجه لا يبقى مجال للتساؤل عن فائدتها فانما هي ارشاد وتوجيه وتسديد وتبصير للجاهل وتذكير للغافل ليستنشق الهواء ويستمتع بالنور . وليس يمدّ تيار هذه الهداية الاّ القيادة العامة أعني وزارة الشئون الاجتماعية . وعلى الرغم من وضوح هذا الغرض واستقامته في الذهن ما نفتأ نتقاتل ونتجادل في فائدة هذه المراكز ، وشغلنا عن الغرض الاسمى ، غرض الاصلاح والتعمير بتقوية هذه المراكز ودعمها

وهكذا يفقد ريف الفلاح إشرافاً مباشراً عموماً له صفة خاصة تيسر له وسائل الاصلاح. ولقد عشت في الريف أشهراً هذا العام . فوضح لي أن الفلاح لا يشعر بأن هناك حكومة تعمل من أجله شيئاً . ومما أفكهكم به على تصويره الحقيقة أن فلاحاً شيخاً سئل : هل تعرف الحكومة ؟ فأجاب في سذاجته الطاهرة : والله لقد عشت عمري كله لم أرَ لها في بلدي وجهاً !!

***

وهل يليق بنا أن ننسى في ميادين المعركة ميدان الأسرة ، وهي الخلية الحية في جسم الأمة؟ أين هو المركز الاجتماعي الذي يتغلغل في مختلف الطبقات لاصلاح حال الأسر صحيّاً واجتماعيّاً وخلقيّاً لانتزاع الخرافات ، وبواعث الشقاق ، مما أدى الى التخاذل والانهيار ، ألاَ إن ميدان الأسرة يحتاج الى جنود صادقة الجهود ، وهو بعنايتنا العاجلة جدير

***

بقي عليّ أن أشير الى انقسامنا طائفتين في الروح : طائفة المتفائلين وطائفة المتشائمين. وائذنوا لي أن أصارحكم بأن كلتا الطائفتين نكبة هذا البلد . فالمتفائلون دعاؤهم أن يصلح الله الحال ، وعقيدتهم ان التطور الطبيعي كفيل بازالة المفاسد وإصلاح الشأن ، وأولئك شر على الأمة فان لله سنناً كونية ليس منها ان يغير الله ما بقوم لم يغيروا ما بأنفسهم ، وأنت إن لم تزرع فلا حصاد . أما المتشائمون فهم يعتقدون في أعماقهم ان المشكلة عريضة وان البلد مختل الحال . وانه لا أمل في اصلاح وانه لا يمكن تغيير الواقع بين يوم ويوم . وفي هذا تسويغ لكسل الذهن وقعود الهمة ، واعتذار عن التقصير في حق الوطن والنكوص عن بذل المجهود من أجله

فلنتجنب هؤلاء وهؤلاء ، ولنكن عمليين ندعو الى الاصلاح ونتقاسم الجهود في ميادينه ونؤمن بأننا جميعاً في سفينة ، فمن خرق منا مكانه هلك وهلكنا ، فإن منعناه نجا ونجونا

والسلام عليكم ورحمة الله